الفارابي

كتاب تحصيل السعادة

حققه وقدم له وعلق عليه
الدكتور جعفر آل ياسين

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثانية
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

جميع الحقوق محفوظة

دار الاندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب: ٤٥٥٣ - ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

الإهداء

إلى زوجتي..
اعترافًا بالجميل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

التعريف بكتاب تحصيل السّعادة

١ ـ التخطيط والتنظيم:

إنَّ التخطيط العام لكتاب (تحصيل السعادة) ينهض أساساً على تحقيق الوسائل التي بها تحصل سعادة الأُمم في هذه الحياة، والحياة الأُخرى. وليست السعادة المقصودة هنا ترفاً مادياً يناله الإنسان كيف شاء ومتىٰ شاء! بل السعادة هنا (طريقة في الحياة) ـ تماماً كما هي عليه الفلسفة، ولكن بمفهومٍ جديد؛ قد يبدو هذا المفهوم مثيراً للاستفسار عن السبيل الذي يقود الفردَ إلى أنْ يحقّق هذه السعادة بطريقٍ عقلاني وعملي معاً. وفي تحديد موجز: متىٰ استوى للطريقين ـ أعني النظري والعملي ـ سبيلهما حدثتْ حينئذٍ المعجزة التي أرادها الفارابي للمجتمع الإنساني في كل زمان وفي كل مكان.

ولكن قد يُطرح سؤال هنا: من أين نبدأ؟ ومتى نبدأ؟ وكيف يكون السلوك الناجح في هذا السبيل؟

نبدأ من حيث ينبغي أنْ نبدأ العلم. والعلم أساساً لا يكون إلّا بتمام لعمل. وبلوغ الغاية في العلم لا تكون إلّا بمعرفة الطبائع، لأنها ـ في أي الفيلسوف ـ أقرب إلى فهمنا. والمهيع الذي ينبغي أنْ نسلكه هنا ـ نبل كل شيء ـ هو البَدْء بمعرفة (المقدمات الأُول) أو ما يسميه الحكيم

بالأوائل المشهورة، لأنها «تحرص على معرفة العلّة في رسم كل واحدٍ منها» من حيث إنها فطرية فينا لا يُعرّى عن علمها أحدٌ، وهي حاصلة في ذهن الإنسان منذ ولادته، ولكنه يستكشفها بطريق التعلّم فحسب، مثل مبادىء عدم التناقض والوسط المرفوع والعلّية. وهي تحدث في العقل من غير سببٍ يوجب التصديق بها إلّا ذواتها.

ويطيل الفارابي هنا الحديث عن هذه المقدمات الأُول وعن كيفية ترتيبها وتنظيمها؛ وما هو سبيل التدرّج فيها؛ حتى تفضي بالفاحص إلى الطريق السوي. فيقع منها عندئذ على برهاني (الإنّية واللِمّية)، أو بمعنى آخر يقع على وسائل الوصول إلى (علّة) الشيء و(معلوله) بطريقين متعاكسين: من العلّة إلى المعلول تارة، ومن المعلول إلى العلّة أخرى. لينتهي إلى حصر مبادىء الموجود بأربعةٍ فقط كما هي عند المعلم الأول أرسطوطاليس.

ولكن مبادىء الوجود هذه غير مبادىء التعليم، لأنها متأخرة عن الأولى ذاتاً، رغم أنها هي السبيل إلى معرفة مبادىء الوجود إذا رُتّبتْ ترتيباً سليماً ـ بحيث تكون النتائج مقدمات أحياناً لنتائج أخرى، وهكذا حتى نصلَ إلى اقتناء المبدأ المطلوب.

- ومن الوسائل التي ينبغي الحرص عليها هو أنْ نسلك طريقاً لا يقود إلى الحَيْرة فنضل ويؤدي ضلالنا عندئذ إلى اضطراب الذهن وتبلد الخاطر. لذا فالأسلم والأدق لنا أنْ نبدأ بالأعداد والأعظام أو بما سماه العرب (علم التعاليم) ـ بمعنى الرياضيات ـ ، لأن موضوعها الأجسام التعليمية؛ أي دراسة الكميات العددية والعلاقات بينها، والكميات الفراغية والعلاقات بينها وتعميم هذه العلاقات، ويشمل هذا العلم الهندسة والحساب والهيئة. ومن خلال هذه المعرفة يُعطىٰ طالبها المقادير والأشكال والأوضاع وجودة الترتيب واتقان التأليف وحسن النظام. وكنتيجةٍ لهذا التدرج العلمي تظهر علوم أُخرى كعلم المناظر وعلم الأُكر المتحركة وعلم الأجسام السماوية وعلم الموسيقى وعلم الأثقال (الأوزان) وعلم الحيل (الميكانيك).

ومن مستلزمات هذا المنهج أنْ يجمع الباحث بين السبيلين اللذين أشرنا إليهما؛ أعني برهان الإنّية وبرهان اللِمّية. وفي مرحلةٍ كهذه لا يزال المتعلّم يتعامل مع ما هو مجرد عن المادة ـ وفي خطوةٍ أخرى يفرضها المنهج عليه ـ يتعامل مع ما هو شبْه مادي، ثم مع ما هو مادي حقيقة. وعندئذ تلوح له صور المبادىء الطبيعية التي تمتزج بها المادة امتزاجاً واضحاً. فينظر عند ذاك في الأجسام الطبيعية وفي أجناسها؛ أو بمعنى آخر يبدأ التعامل مع ما هو محسوس مثل الأجسام السماوية والأرض والماء والهواء والنار ومن ثمة الحجر والمعادن والنبات، ثم يرتفع إلى الحيوان، فالحيوان الناطق. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مبادىء التعليم في هذه المرحلة هي غير مبادىء الوجود، من حيث إن مبادىء التعليم في كل جنسٍ من الأمور الطبيعية تكون متأخرة عن مبادىء وجودها.

وفي بحثه عن الحيوان الناطق، يتدرج من الطبيعة إلى ما فوقها، حتى يصل إلى مرحلة العقل ويقف على مبادئه وعلى الغايات التي لأجلها كوّن الإنسان، فيدرك عند ذاك بأنه في حاجةٍ إلى مبادىء نُطْقية تقوده، بشكلٍ أو بآخر، نحو الكمال. ويستشعر في هذه المرحلة أنَّ محاولة تحقيق الكمالِ لا تتم إلّا إذا تيسّرت له مجاورة أُناسٍ آخرين واجتماعه بهم، وهذا أمرٌ طبيعي وفطري فيه... وعندئذٍ يبرز علم جديد هو العلم الإنساني، يسلك فيه ذات المسلك والمنهج اللذين سلكهما سابقاً . ويفحص فيه عن الغاية التي لأجلها وُجِدَ الإنسان ـ والمقصود بالغاية هنا هو الكمال ـ وكيف يمكنه الوصول إليها، وما هي الأمور التي تعوقه دون اقتنائها... وفي تدرجه هذا سيظهر علم آخر هو العلم المدني؛ والمقصود منه «علم الأشياء التي بها أهل المدن بالاجتماع المدني ينال السعادة كل واحدٍ بمقدارٍ ما أُعِدّ له بالفطرة» وهو إلى حدٍّ كبير شبيه باجتماع الأجسام في جملة العالم كما يقول الفارابي ـ فكأن الفيلسوف هنا يضع للعالم صفتين: طبيعية واجتماعية، وبين الصفتين تناسق وتلاحم وترتيب، وتتمثل الصفة الأخيرة بالمجتمعات والأفراد ويمثّل الإنسان فيها عالماً صغيراً من هذا الكون!

ويستطرد الفارابي في حديثه عن نوعين من القوانين الاجتماعية: ما

هو قابل للثبات وعدم التبدل، وما هو خاضع للتبدل في مددٍ يسيرة. وكل ذلك يخضع للفاعل من جهة، وللإرادة من جهةٍ أخرى. ومثال الأول الإنسان نفسه، ومثال الثاني صفاته كالعفّة واليسار وما يشبه ذلك. وكل هذا يخضع للقوة الفكرية التي لها القدرة على الاستنباط لما هو أنفع وأكثر خيراً في الحقيقة، سواء للفرد أو لأمةٍ أو لمدينة، والأنفع هنا بالضرورة هو لغاية فاضلة.

وما كان من هذه القوة الفكرية يمتلك القدرة على الثبات وعدم التبدل السريع، كان أقرب إلى أن يكون قدرة على وضع النواميس. وما كان يخضع للتبدل في مددٍ قصار كان أقرب إلى أن يكون قدرة على أنواع التدبيرات الجزئية والزمنية المختلفة.

وللفضيلة الفكرية هذه أجزاء وأقسام رأينا أنْ يَطّلع عليها القارىء الكريم خلال النص المحقّق دون الإشارة إلى تفاصيلها.

وعودٌ إلى القوة الفكرية الأولى (التي تتميّز بعدم التبدل السريع)، فإن فضائل هذه القوة تكون أكمل رئاسةً وأعظم قوة من القوة الفكرية التي تخضع للتبدل والتغيّر المتلاحقين. وتكون الأولى منهما هي التي لا تتقدمها فضيلة أصلاً، وتتلوها الفضائل الأُخرى بجدلٍ نازل (وكل ما هو جدلي يخضع لعالم الحسّ كقاعدةٍ عامة في الفلسفة قديماً وحديثاً) ـ وتتساوق هذه الفضائل المختلفة مع أفعالها الصناعية بما هو أنفع وأجمل، سواء كان أجمل في المشهور أو أجمل في مِلّة(1) معينة، أو أجمل في الحقيقة. والفضيلة الرئيسة من هذه تكون عادة تابعة للفضيلة النظرية.

ويثير الفارابي هنا فكرة الفطرة أو الطبيعة، مؤكداً فحوىٰ القول المأثور: «كل ميّسر لما خُلق له» بحيث دفع به هذا الأمر إلى تبني دعاوة أن الملوك ليسوا هم ملوكاً بالإرادة فقط بل بالطبيعة أيضاً! والأمر كذلك بالنسبة إلى الخدم. ومعنى هذا أن الفضائل الفكرية العظمى، سواء ما كان منها خُلقياً أو عملياً، تحصل عادة فيمن أُعدّ لها بالطبع ـ ومَنْ أُعدّ لها بالطبع وبالدرجة العالية، فهو قادر على إيجادها في الأُمم والمدن؛ وذلك بسبيلين

يستعملهما في تحقيق هذا الأمر هما: التعليم والتأديب ـ ويبدأ الفارابي، في هذه المرحلة، شرح دلالة التأديب وصفات المؤدب ووسائل التعليم وطرائق استعمالها، سواء ما كان منها عن طريق الإقناع أو عن طريق الإكراه، مشيراً إلى ما أورده أفلاطون في كتبه السياسية إشارة مرسلة.

وإنه لممّا يميّز هذا الإنسان الذي أُعدّ للرئاسة بالطبع، نظرته الحكيمة إلى أصناف الأُمم أُمّة أُمّة، «فينظر فيما وطّنتْ له تلك الأمّة بالطبع المشترك من الملكات والأفعال الإنسانية» مستخرجاً العامل المشترك بين هذه الأُمم جميعها، محصّلاً بالفعل طرائق توجيههم نحو نيل السعادة المطلوبة؛ سواء بالوسائل النظرية أو العملية، وذلك حسب طبيعة كل مجموعةٍ منهم. فتكون عندئذ العلوم الحاصلة لديهم في رأي الفيلسوف أربعة هي:

١ ـ الفضيلة النظرية المتحقّقة ببراهين يقينية.
٢ ـ المعقولات التي تحقّقت بأعيانها وبطرقٍ إقناعية.
٣ ـ مثالات تلك المعقولات ووسيلة التصديق بها بسبيل إقناعي أيضاً.
٤ ـ علوم منتزعة مما تقدّم من هذه الثلاثة حسب تدرج هذه الأمم.

ثم يحاول هذا (الإنسان المختار) تنظيم مراتب هذه الأُمم حسب فضيلتها الفكرية؛ فيكون بعْضها قريباً من السعادة القصوى، والبعض الآخر محاذياً لها، بحيث يعتمد ذلك على مقدار تحصيلها لهذه الفضائل وعمق أصالتها فيها.

وفي سبيل هذا التنظيم يذهب الفارابي إلى تقسيمٍ ثنائي للأُمم وأهل المدن ـ فهناك فئة خاصة، وهناك فئة عامة.. والعامة هم الذين يعتمدون في معرفتهم النظرية «على ما يوجبه بادىء الرأي المشترك» بينا الفئة الخاصة ترتفع إلى ما هو أسمى، لأنها تعتمد على مقدمات أسدّ بناء وأدقّ إحكاماً. وقد يذهب الظنّ ببعض مَنْ هم أصحاب الفئة العامة إلى أنهم فئة خاصة لخطأ في الفهم والتنسيق.

وفي ضوء هذا التقسيم تتحدّد حصراً رئاسة المدينة (الدولة) بمَنْ هو